

عتاب إلهي بليغ



«يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنَظَرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِرِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحشر/ 18).

إنَّ هذه الآيات من أبلغ الآيات المُشيرة إلى مسألة مراقبة النفس.. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...) ليست التقوى إلا الكفَّ عمَّا لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ: عملاً بالواجب، وإنهاءً عن المحرِّم.

(وَلِتَنَظَرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِرِغَدٍ...) إنَّ الأمر بالتقوى خطاب للمسلمين وللمؤمنين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...)؛ ولكن عندما يصل الأمر إلى المحاسبة، فإننا نلاحظ التغيير في لحن الآية: (وَلِتَنَظَرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِرِغَدٍ...)، ففي صدر الآية هناك خطاب وهو: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)؛ ولكن (وَلِتَنَظَرُوا...) فإنَّه كلام مع الغائب، وليس هناك مواجهة في الخطاب.. يقول البعض - ونرجم ما يقول - بأنَّ هذه الآية لا تخلو من عتاب، ومن تقرير مُبطَّن.. وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ يُريد أن يقول: أخطأ مَنْ؟! .. فالأمر بالتقوى يمكن أن أخطأ به المؤمن؛ لكن مراقبة النفس أمرٌ صعب..

(وَلِتَنَظَرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِرِغَدٍ...) هذه النفوس التي تنظر إلى ما قدَّمتم لغد، نفوس في غاية القلَّة وفي غاية الندرة..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ...) فمن دون الاهتمام البليغ بمحاسبة النفس ومراقبتها، كأنَّ هذه التقوى لا تتم..

ثمَّ تقول الآية: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنَسَاهُمْ أَنْزَفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)، إنَّ نسيان الله - عزَّ وجلَّ - قد يجتمع مع الطاعة.. فإنَّ الإنسان قد يعمل في

شركة لسنوات طويلة، ويؤدّي واجبه اليومي.. وينسى صاحب العمل.. فهو يعمل بشكل تلقائي؛ ولكن لا يذكر صاحب الأمر.. وهكذا فإنّ بعض الناس قد يطيع ربّ العالمين؛ ولكنه لا يعيش حالة الذّكر الدائم. فإذن، إنّ نسيان الله - عزّ وجلّ - يكون تارة بعدم الاعتراف به والتحدّي، وهو الكفر.. وتارة يكون نسيان صاحب العمل في مقام العمل.

(أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) إنّ هذه الآية لا تقول: أولئك هم الخاسرون.. فالذي نسي الله - عزّ وجلّ - في عرفنا أنه إنسان غافل؛ ولكنّ القرآن الكريم يقول: (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فنسيان الله - عزّ وجلّ - إمّا هو فسقٌ خفي، أو مقدّمة لفسق جليّ.

(لَوْ أَنزَلْنَاهَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...) إنّ هذه الآية فيها أيضاً عتابٌ مُبِطّن.. إنها تقول: يا بني آدم! لقد أنزلنا عليك القرآن الكريم، وأمرناك بتلاوته، وجعلناك أهلاً لتحمل معانيه.

ولكننا كيف نتفاعل مع القرآن الكريم، إنّ بعضاً منّا لا يعيش أدنى درجات الخشوع مع كتاب يتصدّع الجبل له. ثمّ يبدأ بختام بسورة الحشر بآيات ربوبية: (هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) * هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْبَرِّ وَالْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فحسب الظاهر أنّ هذه أسماء الله الحسنى؛ ولكن هناك ترابط بليغ مع آيات المراقبة، فقد بدأت الآية بذكر الله - عزّ وجلّ - ، وهو أن لا ننسى الله - عزّ وجلّ - (وَلَتَنْظُرُنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّ مَتَّ لِيَعْدَ...)؟ لماذا؟ لأنك ستُلاقى هكذا رب، أي بما أنّي مادمت أرجع لربّ بهذا الجلال فهو أهل لأن يُراقب، وأهل لأن يُذكر.. فكأن ختام هذه الآيات تشجيع للعبد على أن يلتزم بالمراقبة الدقيقة المستوعبة لكل لحظة من لحظات الحياة.

إنّ التدبّر في القرآن الكريم، هو مفتاح التكامل.. وهذه الآيات مفتاح الفلاح، لأنها تؤكّد على عنصر جوهري، وهو مسألة المراقبة، والمراقبة متوقفة على معرفة المراقب.. فإذن، علينا التدبّر في هذه الآيات، واتخاذها ورداً في كلّ يوم.. لتكون عنصر ردعٍ وتذكير للمؤمن، كلّما أراد أن ينسى ربّه جلّ وعلا.►